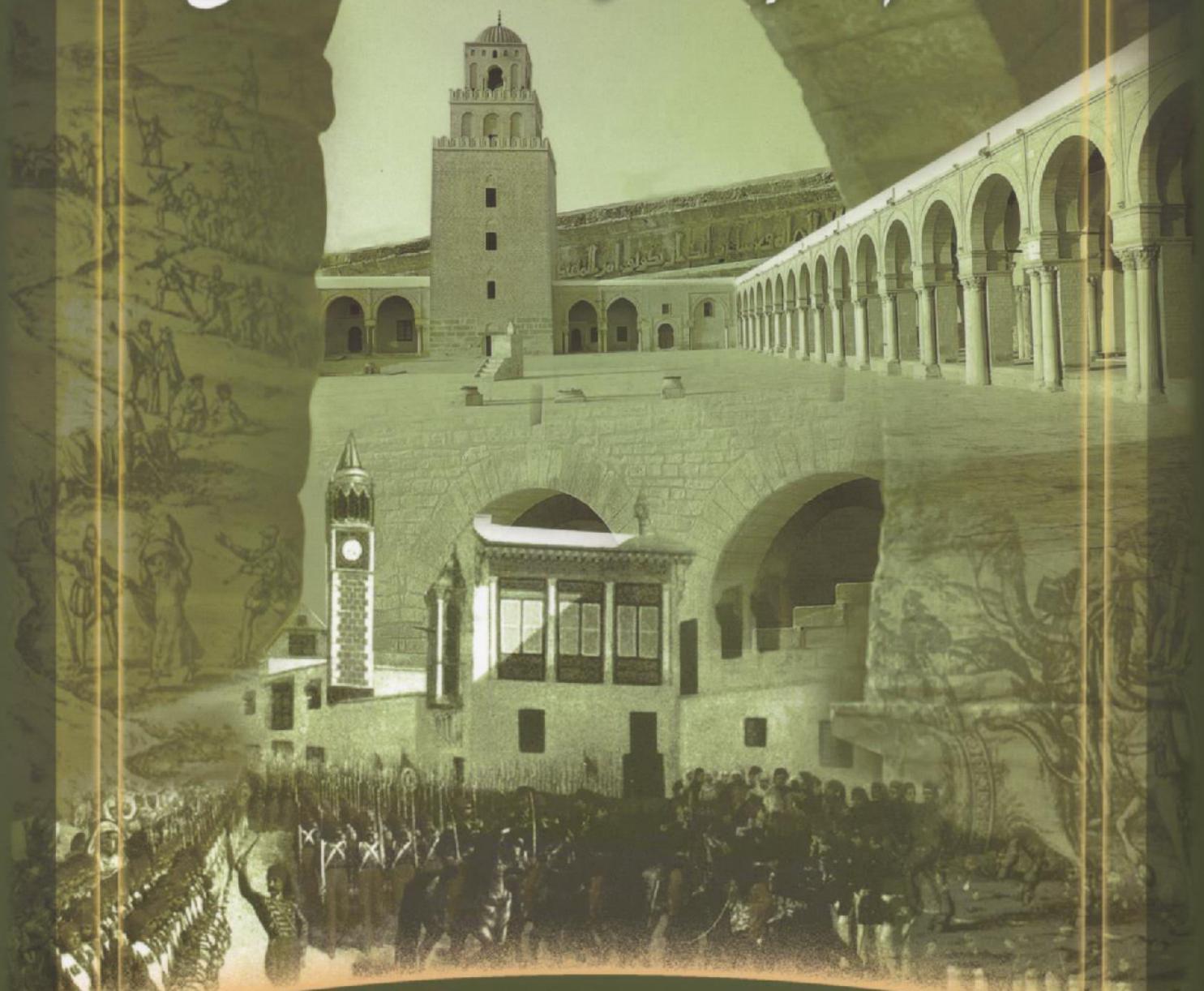


تَوْلِيْسُ عَبْرَ التَّارِيْخ

مِنَ الْعَهْدِ الْعَزِيزِ اِلَىِ الْاِصْرَاعِ



المُجْرِدُ الْثَانِي

العمراء والفنون في العصر الحديث

أحمد السعداوي

أجمل معلم تونس الحالية وأبهاهما أوّلها جامع يوسف داي (1615/1023) وآخرها جامع يوسف صاحب الطابع (1814/1229).

١- جامع يوسف داي، نواة لمجمع معماري على النمط التركي

شيد هذا الجامع يوسف داي الذي يعتبر من أبرز حكام فترة الذaiات. وألحق بهذا المعلم وحدات أخرى عديدة ومتعددة من حيث الأغراض والعمارة تكون جميعها مجمعاً مندوباً يقول عنه الوزير السراج: «ولما بني المسجد المذكور ببني حوله ثمانية أبواب معتبرة: المسجد الجامع والمدرسة والميضاة والقهوة والحمام والفندق وسوق البركة والطاحونة.

والقطع كلّها ملتصقة بعض ببعض بحيث لو نظر إليها منفردة عما جاورها لكان قدر بلدة صغيرة» [الوزير السراج، 1985، ج 2، ص 354].

ويشتمل الجامع على قاعة صلاة يتقدمها رواق وتحيط بها الصحنون من ثلاثة جهات، وتتنصب المئذنة وضريح المؤسس لصف الجدار الجوفي للجامع ويطلان على سوق الشامقية.

لقد وضع انتصاب الأتراك في البلاد، سنة 1574، حداً لحالة الفوضى التي ميزت القرن السادس عشر وبدأت البلاد مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي عرفت خلالها نهضة اقتصادية وانتعاشاً للحياة العلمية والثقافية واستقطبت الإيالة خلالها عناصر بشرية جاءت من أماكن مختلفة وساهمت في تشطيط البلاد، ذكر من ضمنهم الأتراك والمغاربة والأندلسيين والأوروبيين واليهود القرابة.

وقد شجع الكثير من دوایات وبآيات القرن السابع عشر والثامن عشر العلوم والفنون والصناعات، وشيدوا مثل سلاطين استنبول الجوابع والمدارس والأسواق والحمامات. ويتجلى من خلال منجزاتهم المعمارية امتراج التأثيرات المحلية والأندلسية بعناصر أخرى وافدة من الشرق أو من أوروبا. خلال هذا العهد صارت مدينة تونس من جديد من أهم حواضر المغرب الإسلامي وأصبحت مركز إشعاع على الأقطار المجاورة تفخر بالكثير من الإنجازات الفنية الرائقة مثل جامع يوسف داي وجامع محمد باي أو قصر عثمان داي أو مدارس علي باشا أو تربة الباي وغيرها كثيرة سلقي عليه الضوء فيها يأتي.

I- العمارة الدينية :

وتتنمي قاعة صلاة هذا الجامع من حيث العمارة إلى نمط محلي كلاسيكي، فهي تمثل بيتاً مستطيلاً مقسماً إلى بلاطات عدة بواسطة شبكة من الأعمدة متأنٍة أغلبها من المعالم القديمة. تحمل هذه الأعمدة الرخامية والحجيرية أقبية متقطعة تغطي كامل البيت، ماعدا المربع الذي يتقدم المحراب والذي تتنصب فوقه قبة نصف كروية موضوعة على أربع حنيات ركبة.

إن هذه القاعة لا تختلف كثيراً عن قاعات الصلاة الإفريقية المشيدة خلال العصور الوسطى، وهي مع

نتج عن الاستيلاء العثماني على تونس انتشار المذهب الحنفي وتوسيعه على حساب المذهب المالكي السائد بالبلاد. لذلك استحوذ الحكام الجدد في مرحلة أولى على بعض الجوابع والمساجد، وحوّلوا إلى المذهب الحنفي منها جامع القصبة وجامع القصر ومسجد سيدي ابن زيد. كما أحدثوا بها بعض الإصلاحات والتعدلات المرتبطة بممارسة الشعائر وفق المذهب الجديد، منها خاصة تعريض المنبر الخشبي بأخر رخامى وإقامة محفل للخواجات أو المؤذنين الأتراك. وفي مرحلة ثانية وعلى امتداد قرنين أنشئت جوابع كبرى عديدة تعتبر من



تربة يوسف داي (1639)

أنشئت خلال هذا العهد داخل جل مدن الإيالة وخاصة بالعاصمة جوامع كبرى عديدة تعتبر من أجمل معالم تونس الحالية وأبهتها.

فكرة الجميع بين الضريح الأميركي والمعلم الديني فهي مظهر من مظاهر التأثير الشرقي.

كذلك اللوحات الرخامية الخاملة للنقاش والتي تحلي الواجهات الأربع للضريح فقد كتبت بقلم الثلث وهي مستوحاة ولا شك من الفنون المشرقية التي أدخلها الأتراك إلى البلاد. وأخيرا تميّز قبور هذا الضريح عن القبور المحلية بشواهد هي عبارة عن أعمدة صغيرة تغطيها عائم و لهذا ما لا نجد في الشواهد التقليدية للبلاد. ويعتبر جامع يوسف داي المثال الذي شيدت على نمطه كل الجوامع الكبرى التي بناها فيما بعد المراديون ثم الحسينيون بتونس؛ بل نجد هذا المثال حتى في الجوامع التي بناها القرمانليون بطرابلس.

ذلك تحتوي على بعض العناصر الجديدة منها المنبر المكسو بالرخام الأبيض أو المحفل الخشبي الذي يتوسط الرواق الذي يقابلة. أما المئذنة المبنية بحجارة موجفة فهي «على الذوق الشرقي» كما يقول محمد بن الخوجة، لها ثانية وجوه وترتکز على قاعدة مربعة وتتوّجها شرفة فوقها جامور مشمن أيضا يغطيه سقف خشبي هرمي الشكل.

وقد ألحقت بهذا الجامع تربة شيدت بعد وفاة المؤسس سنة 1049 / 1639 وهي عبارة عن قاعدة مربعة يغطيها سقف هرمي الشكل تكسوه القراميد الخضراء. ويتمي هذا الضريح من حيث العمارة إلى نمطأندلسي مغربي عريق على أنه لا يخلو من التأثيرات العثمانية ومن ذلك

تربة يوسف داي هي عبارة عن قاعدة مربعة يغطيها سقف هرمي الشكل تكسوه القراميد الخضراء.

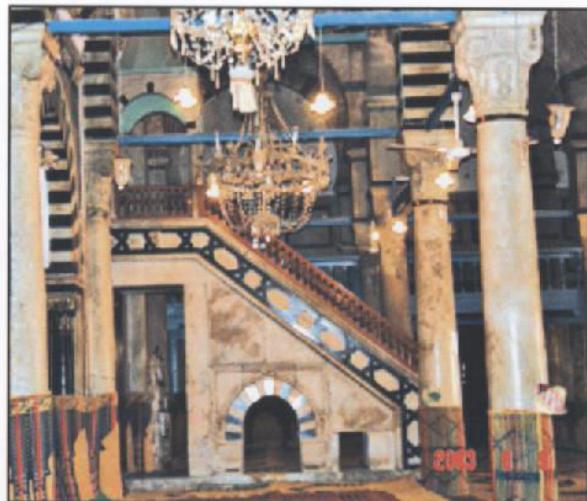
2- جامع حمودة باشا

على عهد حمودة باشا، أعظم البايات المراديين، عرفت البلاد فترة استقرار وازدهار دفعت الأخباريين إلى مقارنة هذا الباشا بكتاب سلاطين بنى حفص. أنشأ حمودة باشا جامعه هذا قرب جامع الزيتونة سنة 1066 / 1655 فجاء كما يقول ابن أبي دينار: «في غاية الحسن والضخامة بحيث لم ير في المغرب أسرّ منه» [ابن أبي دينار، 1967، ص 240].



مئذنة جامع حمودة باشا (1655)

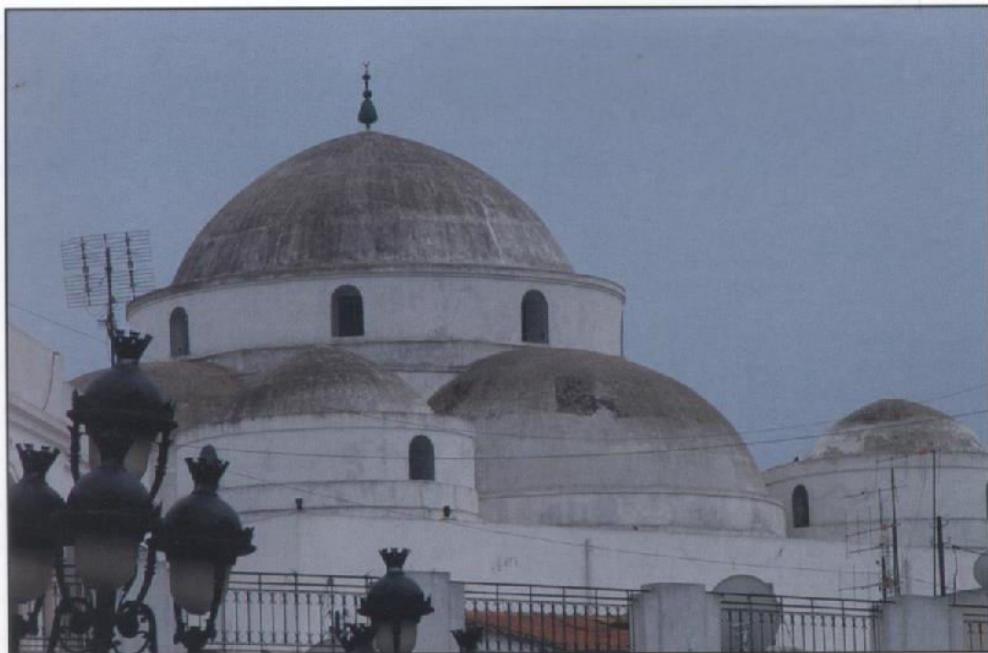
استخدم الرخام
في جامع حمودة باشا
بكميات كبيرة، فمته
صنعت التيجان
والأعمدة والأبواب
والنوافذ، كما استعمل
لكسو مساحات
كبيرة من جدران
الجامع والتربة
وأرضيات الصحنون.



بيت الصلاة لجامع حمودة باشا (1655)

تتوفر في هذا الجامع نقاط تشابه كثيرة مع جامع يوسف داي: قاعة صلاة معمدة متعددة البلاطات ومحاطة بالأروقة والصحون من ثلاث جهات، ومنبر رحامي، ومحراب مكسو بالرخام والجص المنقوش، ومئذنة متشقة مثمنة البدن وضريح يأخذ شكلا مكعبا ويغطيه سقف خشبي هرمي الشكل تكسوه القراميد الخضراء. ويتميز هذا الجامع عن سابقه باعتماده نوعا

جديدا من الأقبية الطولية وباستعمال الدعائم والأقواس المندبجة لتخفيض ثقل هذه الأقبية على الجدران. ونشير أخيرا إلى أن الرخام استخدم في هذا المعلم بكميات كبيرة، فمته صنعت التيجان والأعمدة والأبواب والنوافذ، كما استعمل لكسو مساحات كبيرة من جدران الجامع والتربة وأرضيات الصحنون. وقد جلب هذا الرخام من مقاطع كرارا بإيطاليا وهو يكشف عن إسهامات الفنانين الإيطاليين، إذ نلمس تقنياتهم ومهاراتهم من خلال نحت السواري والتيجان ونقشها ومن خلال حفر اللوحات الرخامية وتزييلها بالأحجار الملونة.



جامع محمد باي المرادي بباب سويقة (1692-1697)

ينتصب المعلم فوق مصطبة عالية مهياً فوق الحوانيت والمخازن. وقد رسمت قاعة الصلاة وهي العنصر الرئيسي في هذا الجامع حسب تحيط مربع تعلوها وتحطيمها قبة ضخمة تستند إلى أربعة عقود كبيرة ترتكز بدورها على أربع دعائم عظيمة. تحيط بالقبة المركزية من جوانبها الأربع أنساب قباب كما تغطي أركان المسجد الأربع قباب صغيرة. وتحيط بقاعة الصلاة أروقة عقودها وأعمدتها من الرخام. ومن الدّاخل تتخلل الكسوة الرخامية للدعائم والجدران لوحات من البلاطات الخزفية المجلوبة من أذنيق ذات ألوان زاهية ورسوم دقيقة.

3- جامع محمد باي

يحتلّ هذا الجامع مكانة خاصة ضمن جوامع مدينة تونس المتأثرة بالمعمارية المشرقة التركية. فهو يبتعد تماماً عن التقاليد المحلية على عكس الجامع الكبير السابق له أو اللاحق به والتي أسست في العهد العثماني. وتعبر عمارته عن إرادة واضحة لمحاكاة جوامع استانبول.

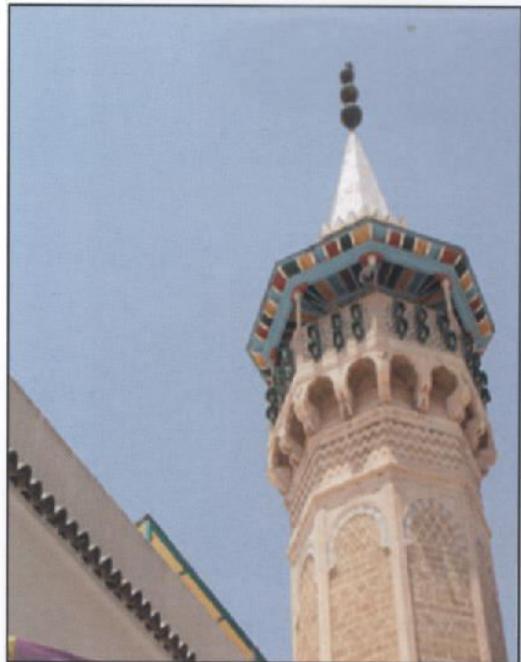
ابتدأت أشغال بناء هذا الجامع سنة 1104/1692 وانتهت سنة 1109/1697 بعد موت محمد باي [الوزير السراج، 1985، ج. 2، ص. 562-565].

يتعدّ جامع محمد باي تماماً عن التقاليد المحلية، وتعبر عمارته عن إرادة واضحة لمحاكاة جوامع استانبول.

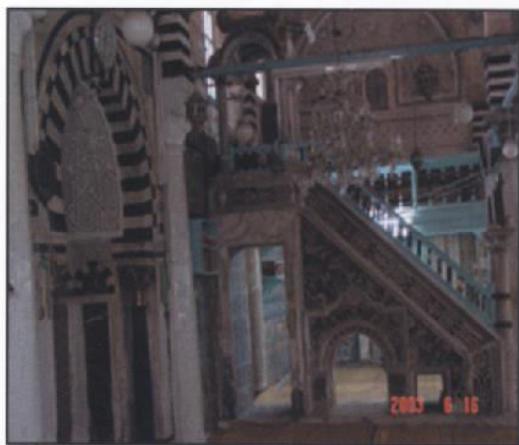
4- جامع الصياغين

الجامع الجديد أو جامع الصياغين بناء مؤسس الدولة الحسينية حسين بن علي التركي فيها بين سنتي 1723 و1727م على نسق جامع يوسف داي ومحودة باشا. وهو يمثل مجمعاً معمارياً صغيراً، يشتمل على جامع

وكان المؤسس ينوي، حسبياً ورد في رسم جبائية المعلم، إقام جامعه بمنارة على شكل منارة جده للأب محودة باشا، ويتربى الأولي له ولأعقابه من الذكور والثانية لأزواجها وذريتها من الإناث، ولكن موته حال دون إنجاز هذه العناصر.



جامع حسين بن علي (1727)



بيت الصلاة بجامع حسين بن علي (1727)

وتربيتين ومدرسة وكتاب وسيط. وتتجلى التأثيرات العثمانية فيه من خلال المنارة المثمنة والمنبر الرّخامي وبلاطات الخزف الأزرقىي التي تكسو مساحات واسعة من جدران قاعة الصلاة. أمّا التأثيرات الإيطالية فنلمسها من خلال الرّخام الملون المحفور والمطعم وكذلك من خلال نحت السواري ونقش التيجان المعمولة من الرّخام الأبيض المجلوب من مقاطع كراره.

5- جامع الوزير يوسف صاحب الطابع أو امتاج الانهاط الفنية الإيطالية بالأئمّة المشرقة
وهو آخر معلم ديني ضخم يشيد بمدينة تونس قبل الاستعمار الفرنسي. شيد الوزير ذو الشخصية القوية يوسف صاحب الطابع فيما بين سنتي 1808 و1814م وقام بإنجاز هذا المعلم أمين البناء ساسي بن فريحة. يشرف هذا الجامع بمنارته الرشيقة المرائعة وبقبابه العديدة على حي الحلفاوين وعلى كامل الربض الجوفي للمدينة.

ويتمثل جامع يوسف صاحب الطابع وحدة معمارية أساسية ضمن مجمع معماري متتكامل يشتمل بالإضافة إلى المسجد على مدرستين وتربيتين ووكالة وحمام وسيطين وعشرات الحوانين والمخازن التي تفتح على الساحات والشوارع القريبة؛ هذا بالإضافة إلى سوق مغطاة مغلقة ببابين تعد ثلاثة وخمسين حانوتاً. ويقابل قصر الوزير المجمع المعماري ويشرف هو الآخر على بطحاء الحلفاوين.

يرتفع مسجد يوسف صاحب الطابع فوق قاعدة مسطحة تتخللها المتاجر والمخازن المحبسة عليه. وقد جاء تخطيطه العام على نسق المساجد السالفة الذكر، إذ تغطي بلاطات قاعة الصلاة فيه أقبية طولية مكسوة من الداخل بزخارف جصية وتبزر فوق سطوح المسجد ست قباب، تنتصب اثنان منها فوق طرفين للبلاطة الوسطى المحورية وتتوزع الأربع الباقية على الأركان.



جامع الوزير يوسف صاحب الطابع (1808-1814). استعمال مفرط للرخام الإيطالي

بن فريجية. يشرف هذا الجامع بمنارته الرشيقه الرائعة وبقبابه العديدة على حي الحلفاوين وعلى كامل الرّبض الجوفي للمدينة.

ويتمثل جامع يوسف صاحب الطابع وحدة معمارية أساسية ضمن مجمع معماري متكمال يشتمل بالإضافة إلى المسجد على مدرستين وتربيتين ووكالة وحمام وسيلين وعشرات الحوانيت والمخازن التي تفتح على الساحات والشوارع القريبة؛ هذا بالإضافة إلى سوق مغطاة مغلقة ببابين تعد ثلاثة وخمسين حانوتاً. ويقابل قصر الوزير المجمع المعماري ويشرف هو الآخر على بطحاء الحلفاوين.

يرتفع مسجد يوسف صاحب الطابع فوق قاعدة مسطحة تتخللها المتاجر والمخازن المحسنة عليه. وقد جاء تخطيطه العام على نسق المساجد السالفة الذكر، إذ تغطي بلاطات قاعة الصلاة فيه أقبية طولية مكسوّة من الداخل بزخارف جصيّة وتبرز فوق سطوح المسجد ستّ قباب، تتنصب اثنتان منها فوق طرفى البلاطة الوسطى المحوريّة وتتوزّع الأربع الباقيّة على الأركان.

ويتميز هذا المعلم باستخدام مفرط للرخام الإيطالي الذي يكسو الأرضيات والجدران ويزين المحراب والمنبر، هذا فضلاً عن مثاث السواري والتيجان المنقوشة والمنقوشة على الطريقة الإيطالية والموزعة على مختلف أقسام المجمع.

تحلي اللوحات الرخامية أنماط زخرفية مأخوذة عن الفن الباروك السادس بشبه الجزيرة الإيطالية خلال ذلك العصر. ويتجلى ثراء هذا المعلم كذلك من واسعة من جدران قاعة الصلاة. أما التأثيرات الإيطالية فتلمسها من خلال الرخام الملون المحفور والمطعم وكذلك من خلال نحت السواري ونقش التيجان المعمولة من الرخام الأبيض المجلوب من مقاطع كرارة.

5- جامع الوزير يوسف صاحب الطابع أو امتزاج الأنماط الفنية الإيطالية بالأنماط المشرقية

وهو آخر معلم ديني ضخم يشيد بمدينة تونس قبل الاستعمار الفرنسي. شيد الوزير ذو الشخصية القوية يوسف صاحب الطابع فيها بين سنتي 1808 و 1814م وقام بإنجاز هذا المعلم أمين البناء سامي

استخدم الرخام الإيطالي بإفراط في جامع الوزير يوسف صاحب الطابع. وفي هذا المعلم تحلي اللوحات الرخامية أنماط زخرفية مأخوذة عن الفن الباروك السادس بشبه الجزيرة الإيطالية خلال ذلك العصر.

**تل تربة الباي مجمعاً
جنازير يا يشتمل على ثمان
قاعات واسعة تتنظم**

**حول صحنين، وتحتوي
هذه القاعات والصحون
على أكثر من 160
قبراً. ويعتبر هذا المعلم
الفردي متحفًا يحتوي
على نماذج عديدة تُمثل
الفنون التونسية على مدى
القرنين.**

وقد ألمحت هذه الأضرحة، وذلك حسب تقاليد
مشرقية، بالجوامع (يوسف داي وحوودة باشا) أو
بالمدارس (علي باشا وعلى باي) وفي أحيان أخرى
نجد لها مستقلة أو مندمجة في دار للسكنى (الدّاي أسطى
مراد والدّاي أحمد خوجة والدّاي مصطفى لاز).

ويتميز هذا المعلم باستخدام مفرط للرخام الإيطالي
الذي يكسو الأرضيات والجدران ويزين المحراب
والمنبر، هذا فضلاً عن مئات السواري والتيجان
المنحوتة والمنقوشة على الطريقة الإيطالية والموزعة على
مختلف أقسام المجتمع.

هذه الأضرحة هي عبارة عن قاعات تغطيها سقوف
هرمية مكسوة بالقراميد أو بالقباب المختلفة الأشكال.
وتحتوي الترب على قبر المؤسس وقبور ذريته وأزواجه
وحتى قبور الجنواري والمالكيك. وأغلب هذه القبور
رخامية، وبعضاها، وهذا نادر، من حجارة الكلّال.
وقد تميز الشواهد بين القبور، من ذلك أنّ قبر المرأة
يتنصب على طرفيه لوحان من الرخام مستطيلاً الشكل
يمثل أحدهما التقىشة الجنازية. أما قبر الرجل فيحمل
قبيرية أو شاهداً وحيداً هو عبارة عن رقبة طويلة
تحمل التقىشة وتغطيها عامة أو شاشية. وتنتمي هذه
الشواهد المعمرة إلى التقاليد المشرقة التي جلبها
الأتراك، وهي تميز قبور الحنفيين عن القبور المالكية.
وأشهر ترب مدينة تونس، والتي تعد بالعشرات،
مقبرة البايات الحسينيين المسماة بتربة الباي.
وقد أنشأها رابع حكام الدولة الحسينية علي باي
 حوالي سنة 1185/1771 وألحق بها مدرسة هي

تحلي اللوحات الرخامية أنهاط زخرفية مأخوذة عن
الفن الباروك السائد بشبه الجزيرة الإيطالية خلال
ذلك العصر. ويتجلى تراء هذا المعلم كذلك من خلال
كثرة البلاطات الخزفية التي تكسو الدّهاليز والصحون
والترّب. هذه البلاطات بعضها مستوردة من أوروبا،
وبعضها الآخر صنع بخي القلالين المجاور. وتنتمي
جميعها بألوانها الرائعة ورسومها الرقيقة المتنوعة.

6- تعدد الأضرحة والترّب الملحة بمعالم دينية

إن إلحاقيات الترب والمدافن بمعالم دينية أصبح ظاهرة تکاد
 تكون عامة في العمارة الرسمية بالبلاد التونسية في العهد
 العثماني. ولقد أنشأ الدّایات والبايات الذين حكموا
 تونس طيلة الفترة العثمانية العديد من الأضرحة
 والترّب قرب الجوامع والمدارس التي شيدوها داخل
 المدينة. ونجدتها داخل المدينة تتوزع على الأسواق
 والأحياء السكنية.

**تنتمي الشواهد
المعممة التي تحملها
القبور إلى تقاليد
عثمانية مميزة جلبها
الأتراك، وهي تميز
قبور الحنفيين عن
القبور المالكية.**



تربة الباي (1770)

التي تحملها القبور والشواهد. هذه العناصر الزخرفية جمّعاً تجعل من هذا المعلم الفريد متحفاً يحتوي نماذج عديدة تمثل الفنون التونسية على مدى القرنين.

7- الروايا

هذا الصنف من المعالم ظهر في تونس في العهد الحفصي، ومنذ ذلك العصر ما انفكَتِ الرُّوَايَا تشغّل مكانة هامة في الحياة الدينية للبلاد. ولقد كانت مدينة تونس وحدها تعداداً في منتصف القرن الثامن عشر 92 زاوية (17 داخل المدينة و 44 داخل ريض باب السويقة و 31 داخل ريض باب الجزيرة) ومن أشهرها زوايا محزز بن خلف وأبي الحسن الشاذلي وابن عروس وقاسم الجليزي. أما في داخل القطر فنذكر الزاوية المنسوبة إلى الصحابي أبي زمعة البلوي بالقيروان وزاوية المرابط المغربي علي عزوز الذي قدم إلى زغوان في النصف الثاني من القرن السابع عشر.

أ- زاوية أبي زمعة البلوي

هذا المعلم هو عبارة عن مجموعة من المباني المتلاصقة يعود جلها إلى القرن السابع عشر، وهو يحتوي على ضريح الصحابي ومدرسة ومسجد ومئذنة ومرافق أخرى عديدة منها منزل مقدم الزاوية وغرف أعدت لسكنى الضيوف ومطبخة ودوربة مياه.

من أكبر مدارس العاصمة. هذه التّربة هي عبارة عن مجمع جنائزي يشتمل على ثانوي قاعات واسعة تنتظم حول صحنين، تحيط بالصحن الرئيسي الأروقة من جميع جوانبه، أما الثاني فهو مكشوف تماماً. وتحتوي هذه القاعات والصحن على أكثر من 160 قبراً، منها مدافن البايات الحسينيين الذين حكموا البلاد منذ عهد علي باي (1759-1782) إلى سنة 1942 تضاف إليها قبور الأزواج والذرية والمهالك والوزراء. وقد جمعت قبور البايات على حدة في القاعة الرئيسية التي تعطيها قبة عالية قائمة على عقود ترتكز على دعائم ضخمة وتكتنف القبة المركزية أنصاف قباب تعطي الأجنحة كما تتتصب في الأركان أربع قباب صغيرة.

تكسو الجدران حتى ارتفاع ثلاثة أمتار تقريراً اللوحات الرخامية الملونة التي تحمل رسوماً أبدعها فنانون إيطاليون. أما الأقسام العليا من الجدران وبواطن القباب فتحليها زخارف جصّية تكشف عن تأثيرات شرقية واضحة.

وتحتوي القاعات الأخرى للتّربة، وأغلبها مخصص لدفن الحرّيم والأميرات، على زخارف رخامية وجصّية وخزفية متنوعة. هذا بالإضافة إلى النقوش والكتابات



زاوية سيدى بالحسن الشاذلي، عمارتها ترجع إلى القرن الثامن عشر

وحبسها على طلبة المذهب المالكي القادمين من الأفاق. وبعد المراديين سعى البايات الحسينيون إلى دعم التوازن بين المذهبين الشائعين داخل الإيالة. خلال العهد الحسيني، اشتهر مؤسس الدولة حسين بن علي وخلفه على باشا بولعهما بالتعمير والتشيد وخاصة ببناء المدارس فبني الأول ثلاثاً منها والثاني أربعاً في مدينة تونس.

هذه العناصر جمِيعاً توزَّع حول أربعة صحنون، بعضها محاط بالأروقة وبعضها مكشوف تماماً. تمتاز هذه الزاوية المقام بالبلاطات الخزفية ذات الألوان الخلابة التي تكسو مساحة كبيرة من الجدران. هذه البلاطات صنعت في القلالين بمدينة تونس أو بمدينة نابل وأقدمها يعود إلى القرن السابع عشر على أنَّ جلها يرقى إلى فترات تاريخية أحدث من ذلك.

8- المدارس

رسمت المدرسة
المرادية حسب مخطط
تقليدي: إذ يصل المرء
بعد المرور بستيقفين
إلى صحن مبلط شبه
مرربع تحيط به أكثر من
عشرين غرفة مخصصة
للطلبة ومسجد يمتد
على الجهة الغربية.
تقدم المسجد والغرف
على طابقين أروقة
تنصب على أعمدة
منحوتة في حجر
الكلَّال تعلوها تيجان
حفصية.

بني هذه المدرسة كما ذكرنا مراراً ثانية سنة 1674 م وهي أول مدرسة ينشئها حكام البلاد الأتراك ويختصُّ صنونها للطلبة المالكين. ذلك أنه بعد مرور قرن على انتصار العثمانيين بتونس تمت المصالحة بينهم وبين مذهب أهل البلاد رغم بقاء انتهائهم للمذهب الحنفي.

وهذا دليل على ارتباطهم الوثيق بالبلاد وبأهلها، على ما وأنَّ المراديين قد عولوا على المحليين لدعيم نفوذهم. وقد رسمت هذه المدرسة حسب مخطط تقليدي : إذ يصل المرء بعد المرور بستيقفين إلى صحن مبلط شبيه مربع تحيط به أكثر من عشرين غرفة مخصصة للطلبة ومسجد يمتد على الجهة الغربية. تقدم المسجد والغرف على طابقين أروقة تنصب على أعمدة منحوتة في حجر الكلَّال تعلوها تيجان حفصية. تتميز هذه المدرسة من حيث العمارة باحتواها على طابق علوي وهذا أمر نادر في مدارس مدينة تونس، كما تتميز باستعمال البلاطات الخزفية لتحليل السقائف والجدران المطلة على الصحن.

كانت العلاقة بين المدرسة والجامع على امتداد هذه الفترة وطيدة، فالكثير من المدارس يندمج في جماعات دينية، وهذا ما تعرضنا إليه في جامع يوسف داي و جامع حسين بن علي وجامع يوسف صاحب الطابع. وقد تمثل المدارس أيضاً وحدات معمارية مستقلة وظيفتها الأساسية التدريس وإسكان الطلبة مثل المدرسة المرادية أو بعض مدارس حسين بن علي وعلى باشا بتونس.

وقد شيد المراديون وكذلك الحسينيون الكثير من المدارس في الكثير من مدن الإيالة، مثل بنزرت وباجة والكاف والقيروان وسوسة وصفاقس وقبس وجربة وتوزر. لكن العاصمة كانت المركز الأول للدراسة والعلم، وقد بلغ عدد المدارس بها العشرين خلال منتصف القرن الثامن عشر. يعود ظهور هذا الصنف من المؤسسات، مثلها هو الحال بالنسبة إلى الزوايا، إلى الفترة الحفصية. وبعد انتصار الأتراك في البلاد قاموا بترميم بعض المدارس القديمة الخيرية مثل الشعاعية والعنقية وخصوصاً للطلبة الحنفية.

II- العمارة المدنية

1- الأسواق

يدرك ابن أبي دينار في سياق حديثه عن إنجازات يوسف داي وهو من الديّات الأوائل الذين حكموا البلاد أنَّ «في أيامه تحضرت البلاد وكثُرت عمارتها [...]» وبنيت في أيامه عدَّة أماكن في المدينة منها سوق الترك، وقد أمر بتحضيره على ما هو عليه اليوم وكان غير هذه الحالة فجاء من أحسن الأسواق التي يتونس [...] وبني السوق الذي به الجراة مأوى لتجارهم وهو

وبداية من عهد يوسف داي أنشئت المدارس الجديدة وأوْلَها المدرسة التي بناها هذا الدَّاي وألحقها بمجمعه المعماري. وقام الحكام الأتراك بتوظيف هذه المدارس المحدثة أو المجددة لنشر المذهب الحنفي، حيث عيَّنا للتدريس بها شيوخاً من الحنفية استقدموهم من اسطنبول ومن طرابلس الغرب ومن مصر.

وفي نفس الوقت تواصل سير المدارس الملكية بل إنَّ البايات ساهموا في إنشاء بعضها بداية من مراد الثاني (1666-1675) الذي بني المدرسة المرادية

داخل ريض باب السوقة وهو حسبما ورد في وقفيّة الجامع «جميع السوق المحدث البناء المشتمل على ثلاثة وخمسين حانوتاً وله بابان قبلي وجوفي». وباختصار عرفت أسواق مدينة تونس اتساعاً هاماً خلال القرنين 17 و 18. وقد خصص لكل حرفة مجال وانتظمت الأسواق وفق تراتبية من المركز في اتجاه الأطراف حيث تتعدد الحرف المرتبطة بالريف.

يدخل إنشاء هذه الأسواق في إطار مشاريع معمارية متكاملة، إذ تحيّس الكثير من الدكاكين والفنادق والحرّامات المتواجدة في الأسواق على الجوانب والمدارس والترّب مما يدعم الحياة الدينية والتعليمية.

وتساهم الأسواق من ناحية ثانية في تنشيط التجارة والحرف، وهذا يزيد من مداخيل الدولة من خلال المكوس. وإقتداءً بيوسف داي تنافس فيها بعده المراديون والحسينيون على تهيئة الأسواق وبنائهما فأنشأ حّودة باشا سوق الصاغة والسلبياني، وهيأ حفيده محمد باي أسواق سيدي محزز والحوت والقرانة والشاشة.

وشيّد علي باشا سوق المرّ بريض باب الجزيرة، وحول علي باي سوق الدّباغين من داخل المدينة إلى خارج باب البحر، وبنى يوسف صاحب الطابع السوق الجديدة

كثيراً ما يدخل إنشاء الأسواق في إطار مشاريع معمارية متكاملة، إذ تحيّس الدكاكين والفنادق والحرّامات المتواجدة في الأسواق على الجوانب والمدارس والترّب مما يدعم الحياة الدينية والتعليمية. وتساهم الأسواق من ناحية ثانية في تنشيط التجارة والحرف.

وتتميز عمارة فنادق ووكالات المدن التونسية ببساطة هيئتها تفعيلاً لنقل فيها الزخرفة ومظاهر الأبهة ولا تستطيع مقارنتها بالخانات المشرقيّة الضخمة.



فندق الوزير يوسف صاحب الطابع (1808-1814)

نجد في الحمامات
التونسية العناصر
الرئيسية التي
ورثتها عن
الحمامات الرومانية
 فهي ذات مخطط
بسط ي تكون
من مجموعة من
القاعات المتابعة
(المرحـس ثم
القاعة الباردة
ثم قاعة الدـلـك
أو بـيـت المـطـاـهـر
وأخـراـ القـاعـة
الـحـارـة أوـيـتـ
الـحـوضـ) يـليـها
الـمـسـتوـقـدـ الذـيـ لـهـ
مـدخلـهـ المـسـتـقـلـ.

الباب وغار الملح على صغر هما تختويان على حمام وسلیمان وزغوان على حمامين، والكاف وبنزرت على ثلاثة حمامات، والقيروان وسوسة وصفاقس على أربعة حمامات.

وي高出 عدد حمامات العاصمة غيرها من المدن؛ يذكر ابن أبي الدنيا أن مدينة تونس في عصره (أي خلال القرن السابع عشر) كان بهاأربعون حماما. وتحصي دفاتر الأداءات، سنة 1843 م، 39 حماما أيضا موزعة على مختلف أحياء المدينة. وقد أنشئت بعض هذه الحمامات خلال العصور الوسطى لكن أكثرها شيد خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

هذه الحمامات لها وظيفة دينية (الطهارة العامة) وهذا أيضا دور حيوي في الحفاظ على النظافة العامة، وهذا أخيرا وظيفة اجتماعية إذ يتلقى فيها رجال الحي وخاصة نساءه. ونجد في حمامات مدينة تونس العناصر الرئيسية التي ورثتها الحمامات الإسلامية عن الحمامات الرومانية وهي ذات مخطط بسيط يتكون من مجموعة من القاعات المتابعة يليها المستودع الذي له مدخله المستقل. وتكون الحمامات خلال هذه الحقبة من العناصر التالية :

أ- السقائف : من الخارج نج داخـلـ الحـمـامـ بواسـطـةـ سـقـيـفـيـنـ تـكـونـانـ مـدـخـلاـ منـعـطاـ،ـ هـذـهـ السـقـائـفـ مجـهزـ بـمـقـاعـدـ حـجـرـيـةـ مـعـدـةـ جـلـوسـ الـحـرـفـاءـ.ـ تـسـتـعملـ الـكـثـيرـ منـ سـقـائـفـ حـمـامـاتـ توـنـسـ كـقـاعـاتـ حـلـاقـةـ أوـ كـمـقاـهيـ.

ب- المرحـس : وهو قـاعـةـ الاستـقبـالـ وـخلـعـ الملـابـسـ بها دـكـاتـ حـجـرـيـةـ مـفـروـشـةـ يـسـتـلـقـيـ فوقـهاـ الحـرـيفـ بعدـ الـانتـهـاءـ منـ الـاسـتـحـامـ لـلاـسـتـرـاحـةـ وـالـاسـتـرـخـاءـ.ـ تـغـطـيـ هذهـ القـاعـةـ قـبـةـ ضـخـمـةـ تـنـتـصـبـ عـلـىـ أـرـبـعـةـ أـقـبـيـةـ طـولـيـةـ أوـ تـحـمـلـهـ الـأـعـمـدـةـ.ـ تـسـتـندـ عـلـىـ هـذـهـ القـبـةـ أـقـبـيـةـ طـولـيـةـ أوـ مـتـقـاطـعـةـ.ـ وـتـكـمـلـ هـذـهـ القـاعـةـ حـجـرـاتـ صـغـيـرةـ تـسـمـيـ مقـاصـرـ،ـ خـصـصـةـ لـلـحـرـفـاءـ الـذـيـنـ يـرـيدـونـ الـانـزـالـ عـامـةـ الـمـسـتـحـمـينـ.

جـ- القـاعـةـ أوـ الـقاعـاتـ الـبارـدـةـ : وهي قـاعـاتـ صـغـيـرةـ لهاـ وـظـيـفـةـ اـنـتـقـالـيـةـ وبـهـاـ مـصـاطـبـ يـجـلسـ عـلـيـهاـ الـمـسـتـحـمـ ليـتـعـودـ عـلـىـ الـحرـارـةـ،ـ وبـهـاـ أـيـضـاـ دـورـاتـ مـيـاهـ وـأـكـنـفـ.

2- الفنادق

تـسـتـعـمـلـ مـصـطـلـحـاتـ الفـنـادـقـ وـالـخـانـ أوـ الـوـكـالـةـ فيـ تـونـسـ للـدـلـالـةـ عـلـىـ مـبـانـ مـخـصـصـةـ لـلـمـسـافـرـيـنـ وـالـتـجـارـ.ـ وـقـدـ تـعـدـدـتـ الفـنـادـقـ وـالـوـكـالـاتـ بـمـدـيـنـةـ توـنـسـ،ـ فـيـ سـنـةـ 1843ـ أحـصـيـ 32ـ مـنـهـاـ دـاـخـلـ الـمـدـيـنـةـ وـ64ـ دـاـخـلـ رـبـضـ بـابـ الجـزـيرـةـ.

وـتـمـيـزـ عـمـارـةـ فـنـادـقـ وـوـكـالـاتـ مـدـيـنـةـ توـنـسـ بـالـبـسـاطـةـ فـهـيـ مـبـانـ نـفـعـيـةـ تـقـلـلـ فـيـهـاـ الزـخـرـفـةـ وـمـظـاـهـرـ الـأـبـهـةـ وـلـاـ نـسـتـطـعـ مـقـارـنـتـهـاـ بـالـخـانـاتـ الـمـشـرـقـيـةـ الـضـخـمـةـ.ـ وـتـخـتـلـفـ معـ ذـكـ هـذـهـ فـنـادـقـ حـسـبـ اـخـتـصـاصـاتـهـاـ وـمـوـقـعـهـاـ دـاـخـلـ الـمـدـيـنـةـ.ـ فـالـفـنـادـقـ الـتـيـ تـتـصـبـ قـرـبـ أـبـوابـ الـأـسـوارـ وـالـمـخـصـصـةـ لـلـرـيفـيـنـ تـتـكـونـ مـنـ حـوشـ تـحـيطـ بـهـ غـرـفـ ضـيـقـةـ،ـ مـعـدـةـ دـوـنـ تـيـزـ لـتـخـزـينـ الـبـضـائـعـ أوـ لـسـكـنـيـ الـمـسـافـرـيـنـ،ـ وـيـتـمـ إـيـوـاءـ الدـوـابـ دـاـخـلـ الـحـوشـ أوـ فـيـ إـسـطـبـلـ.

فيـ حـينـ نـلـاحـظـ عـنـيـةـ أـكـبـرـ فـيـ بـنـاءـ الـوـكـالـاتـ الـتـيـ تـكـثـرـ قـرـبـ الـأـسـوـاقـ دـاـخـلـ الـمـدـيـنـةـ.ـ فـعـادـةـ مـاـ يـكـونـ الـبـنـاءـ ذـاـ طـابـقـيـنـ يـطـلـانـ عـلـىـ صـحـنـ مـكـشـوفـ،ـ يـسـتـعـمـلـ الطـابـقـ الـأـرـضـيـ مـنـهـاـ لـإـيـوـاءـ الـحـيـوانـاتـ النـاقـلةـ لـلـمـسـافـرـيـنـ وـيـسـتـعـمـلـ أـيـضـاـ لـلـتـجـارـةـ أوـ لـتـخـزـينـ الـبـضـائـعـ.ـ أـمـاـ الطـابـقـ الـعـلـوـيـ فـيـخـصـصـ لـسـكـنـيـ الـتـجـارـ،ـ وـهـوـ يـتـكـونـ مـنـ غـرـفـ تـطـلـ عـلـىـ روـاقـ يـدـورـ حولـ الصـحـنـ.ـ وـتـحـتـيـ بـعـضـ هـذـهـ فـنـادـقـ عـلـىـ أـنـشـطـةـ حـرـفـيـةـ أوـ تـجـارـيـةـ مـتـمـيـزةـ،ـ مـثـلـ فـنـدقـ الـحـرـيرـ وـفـنـدقـ الـلـوـحـ وـفـنـدقـ الـزـيـرـتـ وـفـنـدقـ الـقـمـحـ وـفـنـدقـ التـبـنـ أوـ فـنـدقـ الـزـيـبـ.

كـمـ خـصـصـتـ بـعـضـ فـنـادـقـ لـلـتـجـارـ وـالـجـالـيـاتـ الـأـجـنبـيـةـ مـثـلـ فـنـدقـيـ الـفـرـنـسـيـنـ (أـحـدـهـاـ لـلـتـجـارـ وـالـأـخـرـ لـلـقـنـصـلـ)ـ وـفـنـدقـ الـإـنـجـلـيـزـ وـغـيرـهـاـ،ـ وـقـدـ تـجـمـعـتـ هـذـهـ فـنـادـقـ فـيـ حـيـ الـفـرـنـجـةـ قـرـبـ بـابـ الـبـحـرـ.

3- الحمامات

تـحـتـويـ كـلـ الـمـدـنـ الـتـونـسـيـةـ فـيـ الـعـهـدـ الـعـثـانـيـ عـلـىـ حـمـامـاتـ وـحـتـىـ الـمـدـنـ الصـغـيـرـيـةـ الـتـيـ لـاـ يـسـكـنـهـاـ أـكـثـرـ مـنـ أـلـفـ أوـ أـلـفـيـ سـاـكـنـ نـجـدـهـاـ حـمـاماـ أوـ أـكـثـرـ،ـ وـلـاـ تـخـلـوـ مـدـيـنـةـ مـنـ هـذـهـ الصـنـفـ مـنـ الـمـبـانـ.ـ وـخـالـلـ هـذـهـ الـعـصـرـ كـانـتـ مـدـيـنـةـ مـجاـزـ

وقد رسمت الدّور المتواضعة أو المنازل الفاخرة أو القصور جميعها حسب تصميم مشترك بينها في هيكلته العامة. هذا رغم الاختلافات بينها المرتبطة بالمستوى الاجتماعي لأصحابها. فعادةً ما نصل من الشارع إلى هذه الدّور بعد اجتياز ممرٍ خاصٍ يسمى الدّرية.

وتتميز هذه الدّور بسقائتها العديدة (اثنين أو ثلاثة) الواسعة. هذه التّقائف التي تعزل الدّار عن ضجيج الشّوارع تلعب دور قاعات الاستقبال التي يجتمع فيها صاحب الدّار بضيوفه دون إدخالهم إلى داخل منزله. من هنا جاء اتساعها واستئامتها على المصاطب الحجرية أو الرّخاميكية وزخرفتها المنجزة بكلّ عناية. وتنظر هذه الدّور من الداخل حول فناء مكشوف أو محاط بالأروقة من بعض جهاته.

توسّطه أحياناً نافورة من الرّخام، وهي خصّة بقصبة أو قصعتين أو ثلاثة قصعات كما تسمّيه الوثائق.

وتحيط بالفناء البيوت على طابق واحد أو على طابقين. وهذه البيوت هي عبارة عن شقق إذ تتدّل الواحدة منها على جانب كامل من جوانب الصحن وتشتمل على إيوان مقابل للمدخل يسمى قبو، وهو مؤثث بالمقاعد ومحصّن للاستقبال والاستراحة على جانبيه حجرتان صغيرتان، تسمى الواحدة منها مقصورة، ويختلف استعمالها حسب الحاجة ف تكون غرفة نوم لأطفال أو مكاناً تحفظ فيه الأุมدة. ونجد في طرفي البيت أيضاً إيوانين يحملان اسم قبو يشتمل كلّ منها على سرير مبني تخفيه ستائر كثيفة.

هذا البيت، ذو القبو والمقابر كما يسمى في تونس، هو مجال خاصٌ بعائلة من العائلات التي تقاسم المنزل (شقّة لكل من رب الدّار وذرّيته وأزواجهم).

وتكمّل الدّار ما يسمى «بالدّويرة» وهي تتكون من المطابخ والمخازن وبعض الغرف، وفيها يقضي النساء والخدم معظم أوقاتهن. وتتوزّع وحدات الدّويرة حول فناء صغير مكشوف.

د- قاعة الدّلك أو بيت المطاهر: وهي من أهمّ أقسام الحمام، في وسطها فضاء مربع تغطيه قبة تحملها العقود التي ترتفع على الأعمدة. أما الأجنحة فتغطيها الأقبية الطولية والمتقطعة. تحت مربع القبة مصطبة حجرية أو رخاميكية تسمى الصّفرة يجلس فوقها المستحم للاستعرار والدّلك. نجد بهذه القاعة عدة «مطاهير»، وهي خلوات صغيرة مزوّدة بماء الساخن والبارد.

هـ- القاعة الحارّة أو بيت الحوض: وهي ضيقة وطويلة يغطيها قبو طولي. نجد في صدر هذه القاعة قدر كبير من النّحاس تخرج منه سوافي أو أنابيب رصاصية وفخارية حاملة الماء الساخن إلى أحواض حجرية أو رخاميكية. تتم إضاءة هذه القاعة المغطاة بالأقبية، مثل القاعات الأخرى، بواسطة فتحات أو كوات في السقف تأخذ أشكالاً مختلفة وتسمى مضاوي وتقفل بزجاج ملون.

و- المستوقد: وهو من مراافق الحمام له مدخل خاص ويدبره الفرناجي، ويقوم بتسخين الحمام ومدهّ بالماء. ونجد به الجابية والماجل والبئر والوقود والفرن الذي يبني تحت القاعة الحارّة.

ينطلق من الفرن ممرٌ سفلي يمر تحت البيت الساخن وقاعة الدّلك لنقل الهواء الساخن من الموقد، ويسمى الزفاق. يصرف هذا الممر الدخان والهواء عبر قنوات تلتّصق بالجدران وتأخذ فوق السطوح شكل مدخلة عالية وتسمى شاروق.

4- الدّور والقصور

نال هذا الجانب من العمارة، بالنسبة إلى مدينة تونس، حظاً كبيراً من الدراسة بفضل أبحاث الفرنسي جاك روفو حول قصور ودور المدينة. وقد نشرت هذه الدراسة في أربعة مجلّدات.

وفعلاً، تحافظ مدينة تونس حالياً بالعديد من الدّور التي بنيت في العهد العثماني، والتي شملتها أبحاث جاك روفو، وهذا دليل آخر على أهمية هذه الفترة بالنسبة لدراسة التّراث المعماري المتواجد في المدن التّاريخيّة.



دار الجلولي بصفاقس (القرن الثامن عشر)

والسقائف. وهي تضفي على داخل هذه المنازل ألواناً متعددة زاهية.

ونذكر كنموذج لمنازل المدينة القصر الصغير الذي بناه مؤسس نظام الديايات بتونس عثمان داي في أوائل القرن السابع عشر في حي الصباغين والذي يسمى بدار عثمان.

نذكر كذلك الدار التي بناها رمضان باي في أواخر القرن السابع عشر في حي دار البasha، أو دار ابن عبد الله التي شيدت خلال القرن الثامن عشر في حي تربة الباي.

ويمتاز الدور الفاخرة والقصور بمدينة تونس بثراء زخرفتها الداخلية وتنوعها. فالرخام الأبيض الإيطالي أو حجر الكلّال يستعمل لتأطير الأبواب والنوافذ ولكسوة الأرضيات أو لصنع الأعمدة التي تحمل عقود الأروقة.

كما تغطي النقوش الجبسية مساحات كبيرة من الجدران والأقبية وتساهم ألوان البلاطات الخزفية الخلابة في إبراز بياضها الناصع. أما البلاطات الخزفية المصنوعة في حي القلالين داخل العاصمة أو المجلوبة من الخارج فستعمل بإسراف فيكساء جدران الأفنية والبيوت



دار بن عبد الله بتونس (القرن الثامن عشر)

III- العمارة الدّفاعية

مرارا لقصف المدفعية الأوروبية وحملات العساكر
الجزائريين.

لذلك نجد أهم المنشآت الدفاعية بتونس ومنها حلق الوادي، فقد رمم الدّایات والبایات أسوار العاصمة وجددوا أبوابها وأنشئوا المحارس والأبراج حوالها. وتم نقل دار الصناعة إلى حلق الوادي وررم الحصن الذي أنشأ الإسبان لحماية هذا المرفأ الرئيس وأضيفت له قلعة ثانية لتدعم تحصيناته.

خلال هذا العهد تم تعزيز التحصينات ببنية الأسوار حول المدن وهيئت الموانئ الحربية وشيدت الحصون والأبراج. كما أن تطور المدفعية والأسلحة النارية الخفيفة دفعهم إلى استنباط تقنيات بناء تتلاءم مع هذه الأنواع الجديدة من الأسلحة.

الخاتمة

وختاما لهذا العرض الذي قدمنا فيه عدّة معالم اخترناها لرسم تطور العمارة بالبلاد التونسية خلال العصر العثماني يمكننا إبداء بعض الملاحظات حول المواد المستعملة وحول الأشكال البنائية والزخرفية المميزة لهذا المعمار:

تعتمد هذه العمارة أساسا على المواد المحلية ومنها الحجارة الرملية والحجارة الجيرية التي يتم ربطها بملاط جيري. كذلك يستخدم الأجر واللبن والطابية. أما الخشب فتتجه الجبال المتوجدة شمال البلاد، كذلك تورد بعض الأخشاب الصلبة والرفيعة من البلدان الأوروبية.

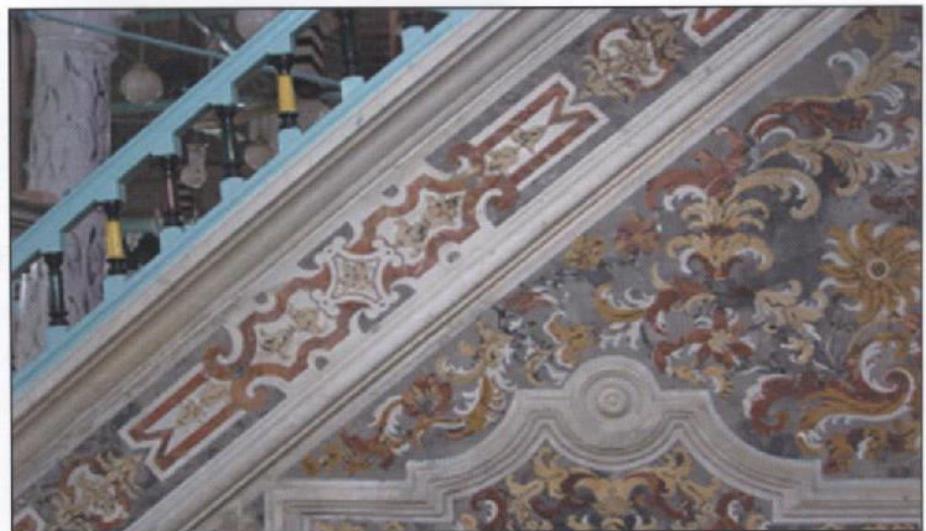
وقد تواصل خلال العصر العثماني استغلال الواقع الرومانية كمقاطع الحجارة والرخام، واستعملت الأعمدة والبيجان المأخوذة من المعالم القديمة الرومانية والبيزنطية والمعالم الوسيطية الإسلامية في تشييد المباني الدينية والمدنية على حد سواء. فمثلا نجد في جامع يوسف داي بتونس إلى جانب الأعمدة الرومانية عدة أعمدة مأخوذة من القصبة الخصبة، وأعيد استعمالها عند بناء هذا الجامع في بداية القرن السابع عشر.

ساهم العثمانيون في دعم النظام الدّفاعي للولايات التابعة لهم في شمال أفريقيا وتحديه وذلك لأنّ الهجمات المتكررة للقوى المسيحية على سواحل هذه الأقاليم دفعهم إلى تعزيز التحصينات ببنوا الأسوار حول المدن وهيئوا الموانئ الحربية وشيدوا الحصون والأبراج. كما أن تطور المدفعية والأسلحة النارية الخفيفة دفعهم إلى استنباط تقنيات بناء تتلاءم مع هذه الأنواع الجديدة من الأسلحة. من ذلك تعويض الأسوار الحجرية العالية بالحصون الصغيرة المبنية بالطابية. وتميّة فتحات معدّة للمدفعية فوق المهاشي التي تعلو الأسوار والرصوّن.

أمّا في المستوى الأرضي من الحصون فتهيّأت مجموعة من الأقبية المتتابعة المعدّة لإيواء المدفعية الثقيلة وهذا ما نجده في حصون غار الملح. هذه المدينة أنشأها أسطى مراد (1637-1640) وهي عبارة عن مركّب عسكري بحري يشتمل على ميناء اصطناعي محصن ودار صناعة وثلاثة حصون مجهزة بالمدفعية وظيفتها الدفاع عن أسطول الإيالة الذي يلتتجي إليها.

وقد شملت التحصينات كامل السواحل وخاصة النقاط الاستراتيجية مثلًا: بتزرت وهي من أهم قواعد البحرية بالإيالة، وطبرقة التي انتعشت بفضل صيد المرجان، وقليبة والحرمات وهي أهم مراكز الجزيرة القبلية، وسوسة والمنستير والمهدية مدن الساحل الكبّرى، وكذلك مديتنا صفاقس وجربة في اتجاه الجنوب.

أمّا فيما يتعلق بالمناطق الداخلية، فقد حصنت المدن الكبرى وخاصة باجة والقيروان وقفصة. وفي هذا المجال أولت الإدارة التركية مدينة الكاف عناية خاصة، فقد أوكلت إليها مهمة التصدّي لهجمات عساكر الجزائريين، وأنشأت بها حصنين، الأول وهو الصغير في بداية القرن السابع عشر والثاني سنة 1675 م. ثم قام على باشا سنة 1739-1740 م. ببناء سور حول المدينة، وفي سنة 1806 م. جدد حّوادة باشا تحصين القصبة والسور. خلال هذا العهد تعرضت العاصمة



منبر جامع حسين بن علي
الرخام المحفور والمطعم بالأحجار الملونة على الطريقة الإيطالية



الخزف الإزنيقي في جامع حسين بن علي

واستخدمت البلاطات في كسوة الواجهات وتأطير الأبواب وتكسية أجزاء من المآذن وبواطن المحاريب. ومع الفترة العثمانية لاحظنا توسيع استخدام البلاطات الخزفية لتشمل مساحات هامة من جميع أنواع المباني الدينية أو السكنية. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر البلاطات الخزفية الإيزنيقية الرائعة التي تمثل أزهار القرنفل والستون وأوراق السان وتخلّي قاعة الصلاة بجامع الصباغين بتونس. وقد استعمل الخط كعنصر زخرفي، سواء في الواجهات الخارجية أو في الكسى الداخلية.

ويكثر استعمال هذا الفن في الأرضية والترب وكذلك في الجامع والمدارس، كما نجده على شكل نقائش تاريخية في مختلف العهائر الدينية أو المدنية.

ومن ناحية ثانية، كان الرخام يورد من البلدان الأوروبية خاصة من إيطاليا منذ بداية القرن السابع عشر، وتزايدت الكميات المجلوبة منه في القرون اللاحقة.

ولما جلبت أعمدة رخامية من إيطاليا جلبت معها التيجان الرائجة من إنتاج عصر النهضة الأوروبية: وهي دورية، أيونية وكورنثية خاصة. كما اعتمدت تقنيات جديدة منها إكساء الحيطان والواجهات بوزرات من الرخام المحفور والمتزل بالحجارة المتعددة الألوان، وذلك حسب تقنية مميزة لفنون عصر النهضة بإيطاليا. ولدينا أمثلة عديدة عن هذه الزخرفة في المعالم التي درستها نذكر منها تربة المراديين وتربة الباي أو جامع حسين بن علي أو دار ابن عبدالله.

أبدع الخزافون
التونسيون صنعوا
رفيعاً ومتيناً من
الخزف عرف رواجاً
في كامل بلدان حوض
المتوسط.

وقد ساهم استخدام يد عاملة من أصل مسيحي في تقوية التأثيرات الأوروبية على فنون البلاد التونسية. كما صنع الفنانون المحليون من الرخام الإيطالي تيجانا وأعمدة وقواعد ذات طابع مغربي بحث، تتسمي خاصة إلى الصنف الأندلسي المغربي أو الصنف الخصي أو ما يسمى بالصنف التركي.

وإلى جانب التيجان والأعمدة استخدمت مادة الرخام في كسوة المباني وتبطيط الأرضيات وتأطير النوافذ والأبواب، ويحمل هذا الرخام نقوشاً وزخارف جدّ متأثرة بالفنون السائدة في أوروبا في تلك العصور وخاصة فن الباروك. وتبعد التأثيرات الإيطالية جليّة في زخرفة الكثير من المعالم التي تعرضنا إليها، ونذكر من ضمنها الجامع الذي بناه الوزير يوسف صاحب الطابع بتونس. وقد عرفت مباني هذا العصر استخدام البلاطات الخزفية والزليج بكثرة. واشتهرت تونس بصنع البلاطات الخزفية المطلية.

كما اعتمدت البلاد على المصادر الخارجية، وجلب لذلك الخزف الإيزنيقي بكميات صغيرة. أما المربعات الخزفية الأوروبية المتأتية من مصانع إيطاليا وأسبانيا، فكانت جدّ رائجة في عمارة المعالم التي تعنيها هذه الدراسة.



قصر الوردة بمنوبة (القرن الثامن عشر)

ومن هنا أخذ هذا النوع من العمل في شمال أفريقيا اسم «نقش حديدة». ومن نماذجه الجميلة تلك التي تزين قصر باردو وجامع الصباغين بتونس أو زاوية سيدي علي عزوز بزغوان. ونلاحظ أن هذا الفن إلى جانب تقليده للموضوعات القديمة الموروثة عن العصر الوسيط اعتمد عناصر جديدة متأثرة بالفنون التركية.

ويتجلى فن استخدام الخشب في صنع الأبواب والنوافذ وخاصة في تلك السقوف الهرمية الشكل أو المسطحة التي ميزت منذ القديم العمارة الأندلسية المغربية، حيث نلاحظ مهارة كبيرة في بناء السقوف بجسورها وروافدها وألواحها، وتحمل جميعها نقوشاً ورسوماً رائعة عديدة الألوان، منها خاصة اللازوردي والأحمر والتذهيب وتوصل أحياناً السقوف بالحائط بواسطة سراويل خشبية تحليها المترنصلات (تربة المرادين بتونس).

وتواصل استخدام الخط النسخي المغربي لدى الخطاطين التونسيين، ونعتذر على هذا الصنف من الخطوط في بعض مباني هذا العصر. من ذلك النقشة التي تؤرخ بناء الرواق الشرقي لجامع الزيتونة بتونس من طرف محمد بن غالب الأندلسي، وذلك سنة 1047/1637.

على أن قلم الثالث الذي جلبه العثمانيون إلى المنطقة ساد في هذه الإيالة التابعة للباب العالي. وكثيراً ما تم إنجاز هذه الكتابات بطريقة متميزة تمثل في حفر اللوحات الرخامية الحاملة للنص وترصيعها بالرصاص.

وقد عرفت جميع أصناف أبنية هذا العصر تقريباً استعمال الجبس أو الجص للبناء أو للزخرفة وخاصة لتكلسية أقسام هامة من الجدران.

حيث تغطي به الحيطان ثم ينقش وفيه بقية بلل «ويشكل على التنساب تحريرياً بمثاقب الحديد»،

متنقيات ببليوغرافية

المصادر

- ابن عبدالعزيز (حودة)، الكتاب البashi، تونس 1970.
- ابن أبي دينار (أبي عبد الله محمد)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس 1967.
- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 8 أجزاء، تونس 1990.
- ابن الخطوجة (محمد)، معالم التوحيد في القديم والجديد، بيروت 1985.
- خطوجة (حسين)، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتورات آل عثمان، تونس 1972.
- الوزير السراج (محمد الأندلسى)، الحلل السنديسي في الأخبار التونسية، 3 أجزاء ،بيروت 1985.
- مقديش (محمود)، نزهة الأنظار، 2 أجزاء ،بيروت 1988.

المراجع

- بشروش (توفيق)، جمهورية الديايات في تونس، تونس 1992.
- جولييان (شارل-أندري)، تاريخ إفريقيا الشهالية، ج 2، تونس 1983.
- الشريف (محمد الهادي)، تاريخ تونس، تونس 1980.

Abdelkafi (Jalel), *La médina de Tunis*, CNRS, Paris 1989.

Abdesselam (Ahmed), *Les historiens tunisiens des XVII^e, XVIII^e, et XIX^e siècles. Essais d'histoire culturelle*, Paris, 1973.

Chater (Khalifa), *Dépendance et mutations précoloniales. la Régence de Tunis de 1815 à 1857*, Tunis 1984.

Chérif (Mohamed-Hédi), *Pouvoir et société dans la Tunisie de Hussayn ben Ali (1705-1740)*, Université de Tunis, Tunis 1984-1986, 2 vol.

Djelloul (Néji), *Les fortifications côtières ottomanes de la Régence de Tunis (XVI^e-XIX^e siècles)*, Zaghouan 1995, en 2 vol.

Grandchamp (Pierre), *La France en Tunisie*, 10 vol., 1920-1933.

Hénia (Abdelhamid), *Propriété et stratégies sociales à Tunis à l'époque moderne (XVI^e-XVIII^e siècles)*, Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis, Tunis 1999.

Larguèche (Abdelhamid), *Les ombres de la ville, pauvres, marginaux et minoritaires à Tunis (XVIIIe. et XIXe. siècles)*, Centre de Publications Universitaires, Tunis 1999.

- Marçais (Georges), *L'architecture musulmane d'Occident*, Paris 1954.
- Raymond (André), *Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, 1986, Sindbad, Paris 1985.
- Revault (Jacques), *Palais et demeures de Tunis, (XVI^e-XVII^e s.)*, CNRS, Paris 1967.
- Revault (Jacques), *Palais et demeures de Tunis (XVIII^e-XIX^e s.)*, CNRS, Paris 1971.
- Ricard (Prosper), *Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne*, Hachette, Paris 1924.
- Saadaoui (Ahmed), *Testour du XVII^e au XIX^e siècle, histoire architecturale d'une ville morisque de Tunisie*, Tunis 1996.
- Saadaoui (Ahmed), «La mosquée tunisienne à l'époque ottomane», dans *Actes du 1^{er} Congrès International : pour un corpus d'archéologie ottomane*, Zaghouan, 1997, p. 107-145.
- Saadaoui (Ahmed), «Les mausolées des deys et des beys de Tunis : les influences orientales et les traditions locales», *Autour des morts : mémoire et identité, Actes du V^{ème} colloque international sur la sociabilité*, Rouen 19, 20 et 21 novembre 1998, Rouen 2001, p. 299-320.
- Saadaoui (Ahmed), *Tunis, ville ottomane : trois siècles d'urbanisme et d'architecture*, Tunis 2001.
- Saadaoui (Ahmed), «Le marbre d'Italie dans l'architecture de la ville de Tunis à l'époque ottomane», in *Architecture italienne de Tunisie*, édit. Finzi, Tunis 2002, p. 63-91.
- Saadaoui (Ahmed), «Les bains publics de Tunis à l'époque ottomane», *Revue Tunisienne de Sciences Sociales*, n°124, 2003, p. 91-132.
- Saadaoui (Ahmed) et Djelloul (Néji), «Ghar-el-Melh : une ville portuaire tunisienne du XVII^e siècle», *Africa*, XV, 1997, p.185-231.